الشوق

قصة بقلم عبد العزيز هدال

كان الشارع نظيفا متألقا ، غسلته امطار الايام الثلاثة الماضية ، التي انقطعت عصر هذا اليوم . ابهجه ان يكون الطريق على هذا القدر من النظافة ، وراح يستمتع بانعكاسات الانوار الساطعة على الاسفلت المبلل والسيارات تحاول تمزيقها . في حين كان صديقه يتأمل واجهات المخازن ، فلاحظ :

ـ حتى بائعو البوردة تنتعش صناديقهم في رأس السنة .

لم يع ملاحظة صديقه في الحال ، حتى فطن الى ان زجاج واجهات المخازن كلها مزركش بالمسحوق الابيض ، تتخلل ذلك عبارة « ميلاد سعيد » باحرف اجنبية وعربية . وفيما خلف الزجاج تتناثر ندف من القطن الابيض .

تساءل اسعد :

ـ لماذا يربطون بين الثلج وبين عيد الميلاد ؟ ان تساقط الثلوج في عيد الميلاد ليس شرطا ، ما رأيك ؟

قال كمال :

ـ في بلادنا ، لا ، ليس شرطا . اظن ان هذا مجرد تقليد اجنبي. في اوروبا يوجد هذا الارتباط . على كل حال كان ثمة ثلوج على جبال الجليل عندما ولد المسيح .

واعاد كمال التحديق الى واجهات المخازن . حقا .. لقد سنفحوا كميات كبيرة من البودرة . قبل خروجه من البيت ، منذ قليل ، كانت ثريا ترش البودرة بين فخذي طفلهما وهي تغير قماطه ، باذلة شيئا من الجهد لتسيطر على حركات ساقيه في مقاومته للتقميط ، انه لا يحب القماط ، لا يحب حتى السروال ، ولد شقي . واذا صدمت ساقه أنبوبة البودرة بعنف ، انهال قليل من المسحوق على الارض ، قليل من المسحوق قد لا يساوي اكثر من القرش الواحد . ولكن ثريا غضبت ، وكادت تعاقبه ، لم يمنعها من ضربه على ساقه العارية الا مرضه .

وأفرغ كمال هواء رئتيه المفسود بزفرة حادة . سأله اسعد :

ـ ما بك ؟

لم يجد جوابا موجزا . غمغم بعد لحظات من الصمت :

ـ لقد أسهرنا الطفل طيلة الليل .

ـ أمريض هو ؟

ـ المشكلة في مرض الطفل انه لا يستطيع التعبير عنه الا بالبكاء . وتحاول أنت جاهدا معرفة العلة لتتوصل الى اسكاته .. ولكن كيف ؟ انه لا يعرف الكلام . وهكذا يستبد بك القلق والغضب في آن واحد .. يتفطر قلبك اشفاقا عليه ، وتود في الوقت نفسه ان تلقي به مع صوته من النافذة .

ضحك أسعد ، دون ان يعرف لماذا ، ومع ذلك كانت ضحكته زكية هفهافة ، مثل رشة من البودرة ، ثم قال :

الحمد لله الذي أراحني من الزواج ومصائبه .

ورفع ياقة معطفه حول رقبته ، بينما اقترب منهما صبي صغير ، قذر ، يرتدي ثيابا خفيفة مهلهلة ، وقال بلهجة ذليلة :

ـ فرنك من أجل الله .

قال أسعد :

ـ أبعد عنا من أجل الله .

ـ يسعدكم الله ، فرنك واحد لاشتري رغيف خبز .

ولبث ملتصقا بهما يردد توسلاته ، حتى نفد صبر كمال فأمسك بذراعه منحنيا فوقه :

ـ اسمع ، ان لم ترحنا من خلقتك ، فسأصفعك صفعة تعمي عينيك . هيا انصرف .

ودفع به عنه ، فتوقف الصبي قبل ان يسقط على الارض ، واحدّ النظر في وجه الرجل بغيظ ، ثم هز كتفيه واندفع نحو رجل وامرأة يسيران ملتصقين . نبر كمال :

ـ العمى ! كم هم وقحون ! مثل ذباب نيسان !

ونوقفا أمام مخزن لعب . واستعرضا أنواعا عديدة منها بصمت . كان أسعد يفكر بغبطة اخوته الصغار لو كان قد فطن واشترى لهم بعضا من هذه الدمى . في بلدته الصغيرة ، التي تشبه ان تكون قرية ، يصنعون دمى ساذجة من قضيبين يثبتون أحدهما على الاخر ، بشكل صليب ، ثم يكسونهما بخرقة . لا يعرفون غير هذا النوع البدائي من الدمى . وأحس بشوق لان يكون هناك الان ، وقد ارتسمت في خياله معالم البلدة ، وبيتهم الفسيح بوضوح . قال كمال ، بصوت عميق هادىء ، كمن يقرأ شعرا :

ـ في عهد طفولتي .. ما عرفنا هذه الاشياء كلها . اذكر ان اختي الكبرى كانت تملك دمية من الجبس تمثل طفلة حلوة . اما انا فقد اشترى لي أبي ، في احد اعياد الفطر ، بزة عسكرية .. بزة ضابط ، يتدلى من حزامها سيف صغير من التنك اللامع . لا أزال أذكر كم كان فخورا وانا اسير الى جانبه في شوارع المدينة ، مرتديا تلك البزة ، ونحن ننتقل من بيت الى بيت نبارك بالعيد .

وضحك ضحكة قاطعة ، مبحوحة وصغيرة وقاطعة ، كأنها جزء من كلمة لم يهتم ببقيتها :

ـ كان يأمل ان اكون ضابطا .

ـ أنا .. كانت دميتي الوحيدة المقلاع . أتعرف المقلاع ؟

ـ طبعا .

ـ أسبق لك العيش في قرية ؟

ـ أي نعم . في الحرب . لجأت أسرتي الى قرية هربا من الغارات الجوية . كنت في الثامنة .

توقفت سيارة « فيات » صغيرة عند رأس الزقاق الفرعي ، على بعد خطوتين من مخزن اللعب . رآها أسعد ، ورأى صاحبها يهبط منها ويدخل مخزن الزهور المقابل . ثم تنبه الى وجه مضيء خلف الزجاج ، داخل السيارة .. وجه ابيض يؤطره شعر اسود وتبرق فيه عينان سوداوان واسعتان مكحولتان . هتف :

ـ يا الهي !

وحملق من جديد . عينان سوداوان واسعتان ، يوضح خطوطهما كحل اسود بارع الرسم ، في ذلك الوجه الابيض المستدير .. وقد رمقتاه ورفيقه بنظرة ندية ، خيل اليه انها اطول من المعتاد . وكان كمال قد استدار يستفسر :

ـ ماذا ؟

ـ انظر ما في السيارة .

وبالرغم من اندهاشه ، هز كمال كتفيه ، ومشى قائلا :

ـ هيا ، الوقوف غير مستحب في هذا الجو البارد .

ولكن أسعد تلكأ قليلا لعله يدرك ما وراء نظرة الحسناء من معنى . ولما رأى صديقه مبتعدا عنه انطلق خلفه . وقال :

ـ هنيئا لكم ، أنتم المتزوجين ، مرتاحون من هذه المشاكل .
ـ تزوج اذن لتجرب هناءنا .
قال ذلك بلهجة ساخرة أدهشت أسعد ، فتساءل :
ـ أولست هانئا ؟
ـ بلى ، بقدر ما يهنأ مريض بالقرحة .
ضحك أسعد ، مرة اخرى دون أن يعرف لماذا ، وقال :
ـ عجيب ! لماذا تزوجت اذن ؟
لم يكن كمال قادرا ـ حتى هذا الوقت ـ على معرفة جواب هذا السؤال ، رغم أنه سؤاله اليومي ، يواجهه عقدته صباح مساء . وقال أسعد :
ـ كنت على وشك الزواج قبل مغادرتي البلدة ، ولكني اكتشفت في اللحظة المناسبة انه من الحماقة أن أتزوج قبل أن أبلغ الثلاثين .
لم ير كمال فيما قاله رفيقه ما يستوجب الكلام ، ولم يعرف منطقا يسوغ ربط الزواج بسن الثلاثين بصورة خاصة . ظل ساكتا .
السيارات الخاصة بدأت تقل . انتهى الناس من شراء جميع لوازم حفلاتهم ، على ما يبدو ، وحان الوقت ليهيئوا أنفسهم لسهرة طويلة مرحة . وفكر أسعد بصوته :
ـ كان يجب أن نتدبر نحن أيضا سهرتنا في مكان ما .
قال كمال :
ـ أنا لا يهمني هذا .
ـ لماذا ؟ أتصوره أمرا بهيجا .
ـ أنا لا أتصوره كذلك ، ولا عكس ذلك .
ـ لماذا ؟
ـ لماذا ؟ الانسان يخضع ـ في فرحه وأحزانه ـ لظروفه. أيمكنني أن أفرح مثلا لمجرد أن عرفا معينا ، في يوم معين ، يفرض علي أن أفرح ؟
ـ ألا يفرض الجو عليك ذلك ؟
ـ الجو ؟
تساءل كمال متضايقا ، ولكنه قال في الحال :
ـ جائز . بشرط أن تكون نفسي مهيأة للدخول في الجو أصلا .
واعترضهما شاب شديد السمرة ، وهو يترنح مثل شجيرة في حضن الريح العاصفة ، قائلا بلهجة رخوة ، تشتهي الرقاد ، رغم ما فيها من اشتعال :
ـ في الجو أو على الارض ، لسوف أمحقه .. أقطعه اربا .
أدرك كمال انه سكران ، قال له :
ـ طيب ، أنت بطل .
كان الشاب ذا سمرة داكنة ، وشفتين غليظتين ، وكان وجهه قاسيا ، وعابسا . سأل كمالا وهو يحاول أن يستقر :
ـ أأنت سائق تكسي ؟
ـ لا .
ـ ماذا أنت اذن ؟
ـ موظف .
ـ وهذا ؟
قال أسعد :
ـ شرطي .
وطاب للناس أن يتجمعوا حولهم ، فدار السكران حول نفسه دورة كاملة حتى واجه الرفيقين من جديد ، وقال لكمال :
ـ كنت متأكدا انك لست سائق تكسي . أنت تبدو ابن حلال . سائقو التكسي أولاد حرام ، لو استطعت الامساك بواحد منهم لمزقته وسحقت عظامه .
كان الكلام يتفجر من فمه تفجرا ، وعيناه تشتعلان بالغضب :
ـ كنا نسير معا . ولما أردنا عبور الطريق لم يمهلنا . كانت السيارة ستقتل صديقي . صديقي الشجاع . أبناء بعلبك كلهم شجعان . صديقي من بعلبك . ولكن دولاب السيارة مر فوق قدمه فهرسها داخل الحذاء . عدوت خلف السيارة . لم أستطع اللحاق بها . لو كنت ... آخ ! لو أمسكت بصاحبها لسحقت عظامه .
قال كمال ، وكان الناس يتضاحكون خلسة ، مثل عذارى محتشمات :
ـ الحق معك .
ـ ماذا يظنون أنفسهم ؟ بمجرد أن يجلس أحدهم خلف المقود يظن نفسه الله . ساعتها جميع الناس لا يساوون في نظره شيئا . أهو اله ؟ انه ليس الها ليستبيح أرواح البشر . طيب ، والله لو أمسكت به لسحقته مثل حشرة صغيرة . ماذا يظننا ؟ حميرا ؟ أم انه يظن نفسه الله ؟ فليظهر لي كيما أريه من هو . سأحطم رأسه ...
وترنح بشدة وهو يقوم بحركة هجوم عنيفة بقبضته خلال الهواء ، فتراجع الناس خطوة وخطوتين الى الوراء جفلين . ولكنه تمالك نفسه ، وحاول التماسك ، وهو يرمق الوجوه حوله بنظرته الغاضبة تلك . قال أسعد :
ـ أنا شرطي ، أتريد أن تقدم شكوى ؟
تفرس السكران في هيكله الصغير لحظة . ثم قال ، عائدا الى مرامقة الناس :
ـ لن يسمع أحد شكوى فقير . عندما أقف أمام القاضي ، سيسخر الناس مني . سيقولون : ما الفائدة من حيائك ؟ ايها الفقير.. أنت يا ابن الكلب .. اذهب ولا تعمل مشاكل .. شف لك جحرا تخبىء فيه نفسك . ولكني سأسحقه اذا رأيته ، سأشعل النار في سيارته . سأفعل هذا بيديّ أنا ... انظر ، انهما قويتان كفاية . لا أحتاج اليك ولا الى القاضي . سأنتقم لصديقي البعلبكي من جميع السائقين .
ابتسم كمال قائلا :
ـ والان ، يا أخ ، قد سمعناك ، ونشهد أن الحق معك ، هل تسمح لنا بالانصراف ؟
ـ أنت اذهب . رفيقك لا . يجب أن يسمعني هذا الشرطي الصغير حتى النهاية .
ـ ولكنه ليس شرطيا . كان يمزح معك .
أصبحت عيناه اكثر اشتعالا الان ، وزمجر :
ـ يسخر مني ؟
قال أسعد :
ـ لا ، العفو يا أخ ، كنت أمزح .. أمزح فقط .

مواقف

سلسلة دراسات رائعة بقلم :

جان بول سارتر

في ست حلقات صدرت كلها

١ ـ الادب الملتزم	٥٠٠	ق.ل
٢ ـ ادباء معاصرون	٤٠٠	ق.ل
٣ ـ جمهورية الصمت	٤٠٠	ق.ل
٤ ـ قضايا الماركسية	٤٠٠	ق.ل
٥ ـ المادية والثورة	٤٠٠	ق.ل
٦ ـ شبح ستالين	٣٥٠	ق.ل

منشورات دار الاداب

فتراخى السكران ، وتنفس بارتياح ، راقبا الناس بنظرة جامدة، حيادية ، ثم تابع طريقه من غير أن يلوي عليهم مرة اخرى . عندئذ ضج بعضهم بالضحك ، وتابع كل مسيرته ، كذلك فعل كمال وأسعد .

وفكر أسعد بصوته :

ـ لدي الاستعداد لسماعه يهذي هكذا حتى الصبح .

قال كمال بلهجة تشبه تفتت أحجار كلسية :

ـ اسمع ، لماذا لا تذهب للبحث عن أصدقاء آخرين ؟ أنت تريد الاحتفال برأس السنة ، مثل الاخرين . طيب ، اذهب وتدبر سهرة مع أصدقائك ، لا تفسد ليلتك معي .

تساءل أسعد بنقاء :

ـ وأنت ؟

ـ عندما أمل المشي أعود الى البيت .

ـ الى البيت ؟ وماذا ستفعل في البيت ؟

ـ ما يفعله أي رجل .

قال ذلك كمن يلقي من يده عقب سيكارة أطفأته الرطوبة . وفكر أسعد : ما عسى أن يفعل الرجال في بيوتهم ، في مثل هذه الليلة ، غير أن يحتفلوا بالعيد ؟ في بلدته لا يحتفلون بشيء كهذا ... انهم لا يعرفون سوى عيدين يحتفلون بهما بصورة صاخبة : عيد الفطر وعيد الاضحى ، يسمون الاول العيد الصغير والثاني العيد الكبير . أما هنا ، في المدينة ، في دمشق ، فالاعياد كثيرة . وفي هذه الليلة يسهر الناس حتى الصباح في مرح وطرب . هذا ما يعرفه ، على الاقل ، خلال ما يسمعه وما يطالعه في الصحف .

لقد نال كمال كفايته اليومية من متعة السير في الشوارع ، والتطلع الى واجهات المخازن ، ووجوه الناس وأزياء النساء . لم تبق لديه الان اية رغبة في أن يستمر متسكعا دقيقة أخرى . توقف يسأل رفيقه :

ـ ماذا قررت ؟

أحس أسعد بالسؤال مباغتا ، مثل كمين في طريق آمنة . لم يكن قد فكر باتخاذ قرار ما . ومع ذلك قال في الحال :

ـ ما رأيك بالسينما ؟

ـ ألا تريد أن تحتفل برأس السنة ؟

فتضاحك بذلك النقاء نفسه :

ـ كنت أريد ذلك لمجرد الفضول . على كل حال ، أنا لا أبالي بنهاية سنة أو بدايتها . ان هذا كله لا يعني شيئا ، أليس كذلك ؟

وفي الحال أدرك انه ردد أفكار كمال نفسه . ليكن ، انه مؤمن بما قال . ولكنه ، مع ذلك ، أحس بوطأة رفيقه عليه ، على أفكاره ، فعانى انزعاجا زاد من ارتباكه . قال كمال :

ـ لا أدري . المهم انني لن أذهب الى أي مكان . سأشتري بعض الفاكهة وأذهب الى البيت . يجب أن أكون مع أطفالي وزوجتي بعد هذا الوقت .

ـ طيب ، كما تريد .

وتصافحا . ومضى كمال .

تنبه أسعد الى أن الشوارع تكاد تقفر من الناس . ويبدو ان أصحاب المخازن اقتنعوا بأن أحدا لن يأتي بعد لشراء شيء ، فشرعوا في اغلاق دكاكينهم .

وكان لا يزال واقفا في مكانه ، حيث تركه صديقه ، على الرصيف ، حائرا . ان لم يلق أحدا من أصدقائه الاخرين ، أين يذهب؟ أيذهب الى البيت ايضا ؟ كمال لديه ، في البيت ، أطفال وزوجة . ماذا لديه هو ، في البيت ؟ ومرة أخرى أحس بالشوق ، يطفو من داخل قلبه ، الى أسرته ، هناك في بلدته البعيدة . عندئذ خطر له ان يذهب الى مقهاه المعتاد ، ويحتسي قدحا كبيرا من الشاي الساخن ، ويكتب رسالة الى أسرته .

دمشق — عبد العزيز هلال

الشعر والعصر

الهجرة

حملت ما حصدت ، ما لديك من ضجيج
حملت في فؤادك الحزين
قوائم الصليب . جثة الحنين
وعفت هيكلي لهيكلي
وغبت أيها المسافر الوحيد في الخليج
ولم تعد .

العودة الاولى :

نسيت لم أغلق النوافذ الصغار
وعدت قبل ليلتين
لكن شوكة الرياح والاسى
تيقظت على خطاك في الرمال والدجى
فلم تدل غير نفسها
عليك لا علي
وغلقت نوافذي الصغار !!!
فصدك الجدار .

العودة الثانية :

وأمس عدت
الشمس في يديك .. غير أنها مستوحشة
والريح في يديك .. غير أنها تراب
ودرت ثم درت ثم درت
تعبت : لم يظل في الجدار باب
نوافذي تغلقت .. تحولت جدار
فدخت ثم دخت .. وانتهيت .

الحلول :

لكنني أحسست في دمي
اليوم ، روحك المخيف
دماك .. في دمي
وصدرك اليبيس يرتمي
على فمي
ومعصمي
فكيف .. كيف غلغلت عصاك من خلال قسوة الجدار
لكي تغوص في دمي
يا أيها المسافر الذي ...
أخافه
لكنني أحبه ؟

بغداد — ابراهيم الزبيدي